واقع مدينة الجزائر من خلال مخطوط محمد السوفي "مشاهداتي في الجزائر".

أة/ نفيسة دويدة

بالمدرسة العليا للاساتذة بوزريعة

ملخص:

حظيت مدينة الجزائر عبر التاريخ بمكانة هامة نتيجة تضافر جملة من العوامل أهلتها لتكون عروس البحر المتوسط لعدة قرون. واذا كانت الكتابات التاريخية الجزائرية قد استفاضت في شرح وتبيان تلك المكانة والاهمية في العصور الحديثة فانها تراجعت في الفترة المعاصرة (ونقصد خاصة في القرن 20م) نظرا للظروف العامة للجزائر ككل.

ومن المخطوطات التي سجلت وصفا متكاملا للمدينة في فترة نهاية الاربعينات، ورصدا لمختلف الانشطة اليومية بها في بعديها المادي (العمران والمرافق) والمعنوي (الفنون والتقاليد) نجد مخطوط محمد الساسي بلحاج السوفي "مشاهداتي في الجزائر". كتبها بعد زيارته للمدينة، والتي مثلت انطباعات زائر تعود على

تسجيل ما يصادفه خلال رحلاته الكثيرة سواء داخل الوطن او حتى خارجه.

مقدمة:

استهوت مدينة الجزائر العاصمة الكثير من الرحالة والغزاة، وابدع الأدباء والشعراء قديماً وحديثاً في وصفها، والتغني بماضيها ومناظرها، وباتت المدينة مقصد كل زائر سواء من داخل الجزائر او من خارجها[1]. وعليه سنتناول في هذه المداخلة واقع مدينة الجزائر في الاربعينات من القرن الماضي، وبالاخص مجالي الفنون والحرف والعمران، وذلك من خلال الكتيب المخطوط المعنون بـ: "مشاهداتي في الجزائر 1368هـ" لصاحبه محمد الساسي بلحاج السوفي.

وسيكون تقديمنا لهدا الموضوع تعريفياً وصفياً أكثر منه نقدياً، وذلك لعدة أسباب نذكر على رأسها عدم توفرنا على المعلومات المطلوبة والكافية عن المؤلف، وعن صدى كتيبه المخطوط، وتفاعل المطلعين عليه.

وقد سطرنا لذلك الخطة التالية:

التعريف بالكاتب والمخطوط.

مدينة الجزائر والتحول العمراني.

مدينة الجزائر وواقع الحرف والفنون.

خاتمة.

1 - التعريف بالكاتب والمخطوط:

صاحب هذا الكتيب المخطوط هو محمد الساسي بلحاج السوفي الجزائري، واسمه الكامل كما ورد على الغلاف هو: محمد الساسي بلحاج محمد الساسي الزقيمي السوفي. ولم تتوفر لنا معلومات وافية عنه؛ عدا ما ذكره عن نفسه في مؤلفاته [2]. تعود اصوله الى منطقة وادي سوف (اسرة والده) ولمنطقة الاوراس (اسرة والدته). ويبدو انه تمتع بمستوى تعليمي عربي معتبر برز من خلال افكار الكتاب، وفي استشهاده في عدة مواقع بآيات قرآنية واحاديث نبوية شريفة وحكم متداولة. ملامحه (حسب صورته النصفية الواردة في أول الكتيب) لا تختلف كثيرا عن الملامح الجزائرية الصحراوية المتمسكة بالزي التقليدي [3]، تنم تقاسيمه عن رجل في اواسط عمره، وميسور الحال نوعا ما.

والكاتب حسبما يتضح كان كثير التنقل، وكانت له عادة تسجيل ما يراه في رحلاته؛ فنجده قارن بين المدن الجزائرية التي زارها (خاصة بالشرق الجزائري)، وكتب عن رحلته لمدينة قسنطينة على نفس النمط (مشاهدات). غير اننا لم نتعرف على تاريخ المولد، ولا عن الوظيفة التي اشتغلها، وعن طبيعة علاقاته [4].

اما كتيبه المخطوط فقد حمل عنوان: "مشاهداتي في الجزائر سنة 1368هـ - 1949م"، وجاء في حوالي عشرين (20) صفحة من الحجم المتوسط، وتضمن عدة محاور وملاحق. و نشير

الى أننا حصلنا على نسخة عن المخطوط من المكتبة الوطنية الحامة، قسم المخطوطات، وهو مسجل تحت رقم: .....، وهي نسخة مقروءة بوضوح .

وفي البداية شرح المؤلف أنه شرع في كتابة " **مشاهداته في جزائر بني مزغنة** "[5] بشكل موجز؛ لأنه أرادها أن تنشر في شكل مقالات بإحدى الجرائد أو المجلات التونسية، وأنه فعلا قام بتقديمها لأحد الصحفيين (ولم يذكره بالاسم)، حيث احتفظ بها هذا الأخير لشهر كامل دون أن يقوم بنشرها كما اتفق مع صاحبها؛ فاضطر الكاتب أن يسحبها، ويعيد مراجعتها، وأن يضيف إليها بعض الشروح والتعديلات بهدف طبعها بشكل مستقل، ووعد أيضاً بأن يعود "ليفيض القول عند سنوح الفرصة"[6].

وقد تضمن الكتيب عدة مواضيع وقضايا استوقفت المؤلف في رحلته إلى الجزائر العاصمة، وصنفها في شكل عناوين فرعية عن: العلوم والأخلاق والاقتصاد والسياسة والثقافة.. الخ. وأفرد ملحقاً خاصاً لمشاريع مؤلفاته القادمة، وحددها بثلاثة. وختم الكتاب بتصحيحات الأخطاء الواردة سهوًا. وجدير بالملاحظة أنه ركز في انطباعاته على حياة الجزائريين المسلمين، ولم يقدم إلا عرَضاً بعض المعلومات المتعلقة بالأوروبيين في المدينة. ولكنه عموما اهتم بذكر تفاصيل دقيقة عن عمران المدينة وقت زيارته لها، وحدد ابرز مرافقها الحضارية من: المساجد والمدارس والمكتبات والمتاحف

والحدائق ومرافق التسلية ووسائل النقل والمقاهي والمطابع والمساكن. وكذا وصف حال الفنون والحرف والتقاليد بها فتناول خاصة: نشاط الصحف والاخلاق العامة والنظافة والانارة العمومية وزيارة القبور والاضرحة وتقليد الاوربيين.

2 - مدينة الجزائر والتحول العمراني:

مما جاء في المقدمة بعد البسملة والحمدلة، والسلام على النبي الكريم وصحابته الموصوفين، ابداء الكاتب الإعجاب والانبهار بمدينة الجزائر، وفي الوقت نفسه حسرته على حالها؛ فقال عن ذلك: ".. **وقد هالني ما رأيت في هذه البهجة الغناء اليتيمة العصماء؛ عروس الضفة الجنوبية من حوض البحر المتوسط؛ ذات المجد الباذخ، والشرف الراسخ، والطود الشامخ، والتقدم الزاهر، والصيت الوافر، والسيطرة على الأمم الشمالية التي كانت بالانحطاط مغمورة، وبالتخاذل والشتات مبتورة؛ حتى سقطت بين الناب والمخلب** "[7]، وأضاف: ".. **فحركت شجوني، وأسالت عبراتي من جفوني**"[8]. وأنه "**في المحرم 1246هـ أوائل صيف 1830م كان ذهاب عزنا وشرفنا وقوميتنا بناءً على تهور أميرها حسين سليل مكتسحي الشرف هولاكو وتيمورلنك** ". ولاشك أنه شاطر كل الجزائريين في عمق المأساة التي وقعت سنة 1830م بسقوط الجزائر لقمة سائغة في يد الاحتلال الفرنسي، غير أن

الكاتب هنا حمَل الداي حسين باشا لوحده مسؤولية ذلك، ووصفه بالأمير المتهور.

أبدى المؤلف إعجاباً واندهاشاً كبيرين بمختلف المظاهر الحضارية بالعاصمة؛ من بنايات ووسائل نقل (سكك حديدية وقطارات وسيارات وتراموي وموانئ)، وفوانيس الكهرباء، والطرق المعبدة، والبساتين العامة.. الخ. واطنب بوصفها، وبشرح وظيفتها، وأثر تلك المنشآت على الصورة العامة للمدنية، بالإضافة إلى الانبهار بالنظافة، والحركة الدائمة ليلا ونهارًا، وبالمناظر الخلابة والهواء الطلق، ولاشك أن هذا الوصف دل على تجوله بأحياء عديدة بالعاصمة، وعلى وقوفه طويلا أمام تلك المرافق؛ خاصة أن مدة شهر تعتبر كافية لزيارة عدة أمكنة. لكنه لم يشر إلى مدى استفادة الجزائريين من كل تلك المنجزات؛ خاصة أن عدد القاطنين منهم بالعاصمة يعتبر ضئيلا مقارنة بأعداد الأوروبيين[9].

وأشار الكاتب إلى وجود كثير من المنشآت الأثرية الدينية، ويأتي على رأسها المساجد وملحقاتها، ومنها الجامع **الأعظم**، وجامع **الباشا** (كتشاوة)، والذي حُول إلى كنيسة، وذكر مسجد **الميناء** المغلق، ومسجد **باب الوادي** الذي حُول بدوره إلى كنيسة، ويبدو أن المؤلف لم يتمكن من زيارة هاذين المعلمين الأخيرين؛ بينما وصف خارج وداخل المسجدين الأولين، وعبر عن اعتزازه بتلك المعالم التاريخية التي شكلت حقبة زمنية مشهودة؛ فقال: ".. **يوجد**

في مدينة الجزائر مساجد كثيرة مما ترى في بعضها آثار ملوك الإسلام بالقرون الوسطى فضلا عن الأخيرة، وما شيدوه بها.. مع ما ترى فيها من عظمة وارتفاع ورخام وقباب بما يستشعرك عظمة بانيه". بالإضافة إلى مسجد ثكنة **باب الجديد**؛ الذي حولته إدارة الاحتلال إلى متحف عسكري، وكان المؤلف قد زاره عام 1351هـ[10].

وأشار المؤلف إلى ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي إدراكه لرمزية المؤسسة المسجدية ودورها، وغنى مدينة الجزائر بها، وذكر ان عدد ما كان بها يفوت المئة (100) مسجد ومعهد هُدم اغلبها؛ فقال: "**ولو رجعنا إلى الوراء لعلمنا انه كان بالعاصمة فوق المئة مسجد ومعهد قد أخنى عليها الاستعمار.. وهدم كثيرًا منها باسم فتح طرقات، وبناء مخازن علوفة، ومتاحف ومعابد نصرانية** "[11].
كما عرج الكاتب إلى ذكر وجود بعض البنايات والمنازل الفخمة؛ التي دل طراز عمارتها على " **ثراء الغابرين، وهمتهم وعزتهم وتنوعهم وتفننهم، وتنعمهم بمرافق الحضارة لوقتها من أعلى طراز**"[12].

والملاحظ ان الكاتب لم يكتف بوصف العمران في جانبه المادي فقط؛ انم استرسل ايضا في توصيف وظائف تلك المنشآت، والتركيز على اهميتها في الحياة العامة لمجتمع مدينة الجزائر. وأبدى إعجابه مثلا بما يذاع بالمسجدين الكبير والصغير من صلاة وتكبير وأذكار، وهاله ما شاهده: ".. **ومما سرني في هذا الجامع [الكبير]**

وجود جمع من الشيوخ [..] يقرءون حزبين من القرآن يومياً بالوقف الهبطي: إحدهما قبل صلاة الظهر، والثاني عن صلاة العصر بتلاوة هادئة يشهدها عشرات من المصلين - فتياناً وكهولا وشيوخاً - وان قيل أنهم ينتظرون الصلاة؛ فلم يتأخرون للثاني وقد أدوا صلاتهم؟، لا بل هو للاستماع لكلام الله المنزل، وللتلذذ بنغمات ترتيله مما يبهر سماعه، وأين مثل هذا خارج الجامع الآنف الذكر؛ إلا ما ندر، وشاهدت مثله بجامع الزيتونة بتونس عقب المغرب حزبين تكرر ثلاث مرات؛ إلا أن التلاوة أسرع "[13].

واستحضر الكاتب نفس المشهد الخاص بتلاوة القرآن الكريم بزاوية الشيخ **باش تارزي**، وذلك في زيارته السابقة لمدينة قسنطينة سنة 1357هـ/ 1938م[14].

وتحدث الكاتب عن ارتباط الجزائريين بعقيدتهم، وعن تمسكهم بالعلوم الشرعية، وارجع الفضل في ذلك لجمعية العلماء المسلمين، وقد لمس في المناسبات التي حضرها هذا الشعور الديني رغم العوائق؛ فقال: "**.. أراها [أي الإصلاحات الدينية] في زهو واضح لما تعشمته في بعض مجالسهم من العامة فضلا عن الشبيبة النيرة؛ إذ ترى كل يسعى لصقل العقائد الشرعية.. والفضل في ذلك - والحق يقال - لجمعية العلماء التي تأسست في أخريات ربيع سنة 1350هـ، وبفضل ما تبثه ولازالت تبثه من دعايات علمية وإصلاحية رغم العراقيل والمثبطات**"[15]،

وتحدث الكاتب عن جمعية العلماء المسلمين، ودورها في توعية وتعليم النشء، وقال أنها " **أعظم جمعية موجودة بالجزائر** " مهمتها " **بث الثقافة، ونشر الفكرة الإصلاحية** "، ووصف شُعبها، وفروعها، وذكر تأسيس جمعية خيرية تابعة لها (للجمعية الأم)، وأنها قد أنشأت حديثاً، وضمت بعض شباب وادي سوف: ".. **نرجو أن تخرج من دور التكوين قوية ناشطة عاملة إن شاء الله**"[16]. ولم يكن خافياً حينها دور الجمعية البارز في مقارعة الأساليب الاستعمارية؛ خاصة أنها (بعد 1945م) انتقلت إلى تنشيط العمل الديني والتربوي الثقافي أكثر من السياسي.

وقد اهتم المؤلف أيضاً بوصف مرافق التسلية بمدينة الجزائر، وعلى رأسها حديقة الحامة التي خصها بكثير من الإعجاب نظرًا لما حوته من حيوانات متنوعة: ".. **فترى خمسة من طير النعام أعتى من الناقة واغرب منها هيأة بريش يكسوها وعنق غريب فطولها تبلغ به أعالي الأشجار، وفيه سبعين كاسرين، وغرنوقين!!، ونسرين، وثعلبين، وبومتين، وضربان، وحنش، ووزل، ويرابيع ستة، وعشر ذئاب، وعشر قرود غير فصيلاتها، وجرمانات!! سبعة، وخمسة عشر بلارج، وغزلان أربعة؛ منها ثلاثة ضخام، وعشرة طواويس بألوان يبهرك منظرها، وببغاء ستة مما يلفت النظر بما يمتزن به من جمال الطبيعة، وضبع بقرنين كبيرين كأنه كبش بخطوط بيض وسود، وتيل وعصافير تتجاوز**

المئة وخمسين على مختلف ألوانها العجيبة. أما أنواع الدجاج فكثير جدًا، والأرانب أيضاً في فصيلات كثيرة، واللامة (حيوان أمريكي) طويلة العنق مستوية الظهر؛ فكأنما هي ناقة بلا سنام، وتمساحان مما يألف مياه الأنهر، ويمكنه ان يخرج إلى البر؛ طول كل واحد منها حوالي السبعة أقدام؛ مع أربعة أيدي كالورل من زواحف الأرض في ضخامة طفل مراهق... تلك أربعة وعشرون صنفاً من الحيوان، وقد أضربت صفحاً عن كثير من الدواجن وغيرها مما لم ادققه بعد. وفي دهليزه شبه متحف مصغر به عشرين بيضة نعام؛ مع خمسة بيض [..] وورل محشو، وقرون وعل، وجلود حيوان وحشي، ونماذج من حجارة صحراوية، وبعض من الريش إلى غير ذلك مما يعجب وهو غريب "[17]. وبالنظر للوصف الدقيق لكل ما توفرت عليه الحديقة تقريباً من حيوانات، بالإضافة إلى المتحف الصغير؛ فإننا نتساءل إن كان مسموحاً حينها للجزائريين "الأهالي" بالدخول؛ خاصة انه جال بأرجائها؛ من دون الحديث عن المشرفين عليها، أو عن الزوار المتواجدين بها (بالخصوص إن كانوا من المسلمين أم الأوروبيين؟)، وهو لم يذكر أيضاً شيئاً عن مرافقيه إليها.

3 - مدينة الجزائر وواقع الحرف والفنون:

وصف الكاتب الحركة العلمية بمدينة الجزائر باستفاضة فذكر أنها حتماً في ازدهار بالنظر إلى عدد الكتاتيب والمدارس

القرآنية التقليدية المنتشرة في أرجائها، إضافة إلى النوادي الثقافية، وتطور الحركة الصحفية، وحيوية مجال النشر والطباعة... الخ، حيث قال: " **الحركة العلمية بلا شك في ازدهار، ونظرًا لما رأيت وسمعت عما أسس فيها من المدارس القرآنية المنبثة في أحيائها وأرباضها، وما شاهدته في بعض المقاهي والمجتمعات من صحافة ومجلات وكتب ومنشورات؛ فضلا عن ما بها من النوادي بما يقوم فيها من مذكرات ومطالعات** "[18]، ولم يذكر المؤلف أي اسم من تلك المدارس والنوادي.

أما الصحف والمجلات حدد المؤلف مجال النشاط الثقافي في صدور ثلاثة عناوين صحفية جزائرية هي: البصائر لسان حال جمعية العلماء، المغرب العربي لسان حال حركة انتصار الحريات الديمقراطية، الوطن الديمقراطي لسان حال حزب البيان[19]. وأعاب عدم وجود حيوية في المجال الصحفي، حيث كتب: " **الثقافة العمومية تبين عادة في وفرة وتنوع الصحف والمجلات والنشرات والكتب والمطبوعات على تنوعها، ومع ذلك فاني لا أجد اليوم في الجزائر؛ إلا ثلاث صحف عربية** ". وتساءل عن مرافق الساحة الثقافية قائلا: " **أليس من الغريب أن لا يكون لأمة تتألف من عشر ملايين نسمة، أو إحدى عش؛ لا يكون لها إلا عدد قليل من الصحف؟، ولا وجود لجريدة يومية واحدة فيها. أما المجلات فما بها إلا "إفريقيا الشمالية"، وقد صار منها عددان لحد الآن. وأما**

المطابع فلا تتجاوز الثلاث على ما أعرف "[20]. و" **أن الكتب يستوردها الكتبيون عندنا من مصر والشرق ومن تونس أيضاً. وأما المكتبات العامة فما في مدينة الجزائر إلا واحدة (هي دار الخزانة التي تحوي عشرات الآلاف بين مخطوط ومطبوع، وكنت طالعت بها في النصف الأول من صائفة سنة 1350هـ)[21]، ولو بحثت ونقبت عما يوجد هنا للأجانب من طباعة، ووليداتها من صحف ومجلات وكتب باللغات الأجنبية؛ فهالك ما تراه وتجده**"[22]. وعليه يبدو الكاتب مهتماً بمجال المطالعة، وبتصفح الجرائد والمجلات، وملماً إلى حد ما بمختلف المؤسسات الثقافية المتوفرة بمدينة الجزائر، ومعايناً لبعضها عن كثب، متأسفاً على حالها، وما آلت إليه مقارنة بنظيراتها في الأقطار المجاورة.

وأشار الكاتب بذكاء إلى أنواع الفساد الأخلاقي الذي لاحظه في المجتمع العاصمي، والذي تنوع بين: رواد الحانات والمقاهي " **التي هي بؤرة الفساد** "، وبين الفتيات المتبرجات " **فتجد الفتيات غاديات رائحات كاسيات عاريات متبرجات فاتنات** "[23]، والشباب المتعري "**تجد الغلمان .. متسربلين لنصف الفخذ** "[24]. بالإضافة إلى زائرات الأضرحة والقبور: "**أما زائرات القبور والمترددات على ضريح الثعالبي بالخصوص لالتماس البركة من أعواده المنصوبة عليه؛ فلا يكاد يوصف** "[25]. وشدد المؤلف على هذا الأمر، حيث انه لم يكتف بوسم تلك النسوة بالمشركات؛ لب دعا أهل الاختصاص إلى

إغلاق هذا المزار لإيقاف تلك الممارسات المؤدية حسبه إلى الشرك؛ فكتب مستشهدًا بالآيات القرآنية قائلا: ".. **أما آن أن تلتئم ثلة ممن أنار الله بصائرهم بقبس من العلم الصحيح؛ كي يسعوا جهدهم للمراجع ذات النظر لقفل هذا الربع المطاف به؛ بل حتى ينقذوا طائفة كبرى من أدران الشرك والتبجيل.** "، " **لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج** "[26]. ونستشف هنا وعي المؤلف بأهمية هذا الموضوع، وأثره في استقامة حال المجتمع، وغيرته على الدين الصحيح؛ رغم أنه وجد العذر في كون باقي المدن بالمشرق العربي (باستثناء الجزيرة العربية) تشترك في عموم هذا الأمر: ".. **إن كل الأوساط الشرقية على مثل ما ذكرنا لا تستثنى؛ إلا جزيرة العرب مهبط الوحي والتنزيل، أو من عصمهم الله من غيرها، ونود أن نطهر أم البلاد من الفسق والشرك؛ حتى تتأس بها بقية آفاقها**"[27].

وأشار إلى أن المستعمر هو المتحكم الرئيسي إن لم يكن الوحيد بحركة الاقتصاد ودواليبها، وأمل أن يتمكن الجيل الجديد من إحداث تنمية، وتخليص الثروة الجزائرية من المسيطرين عليها؛ فقال: "**قد استحوذ على معظم الحركة الاقتصادية القوم الذين باؤوا بغضب من الله والمسكنة، ثم ابتز البقية الباقية الدخلاء؛ حتى أصبح الأهلي عالة لا يعول عليه في شيء من اقتصاد وطنه، وهذا أمر نرجو أن يزول بفضل ناشئة جديدة تنشأ نشأة صالحة**

مباركة؛ فتسترجع مقام الأمة من ثروتها، وتخطو بالبلاد الخطوات المرغوبة"[28].

وتعرض الكاتب إلى خطر التقليد لدى الشباب الجزائري كأحد نتائج التغير في الأفكار، وفي كل مظاهر الحياة، ونبه إلى انه خطر متفشي؛ لأنه يشمل التقليد الأعمى: ".. **بناءً على الانقلاب الواقع في الأفكار، [..]، وما يستجد في الدنيا القديمة الجديدة من أمريكا إلى آسيا وأوربا وإفريقيا.. مع ما جر إليه من سفاسف ورذائل وانقلاب غير ناضج، وتقليد أعمى.. ربما كان في الأنحاء الضارة أكثر منه في الأنحاء النافعة الحقيقية؛ كان حرياً أن نؤسس الشركات النافعة، والجمعيات العاملة، والأحزاب الناهضة، والتعليم بأقسامه الثلاث** "[29]. وهذا ما تسبب - في نظر الكاتب - في فقدان الجزائريين لكل ما من شأنه أن يعيد إليهم التعليم والوظائف والحياة الكريمة؛ فأضحى المجتمع المسلم نتيجة لذلك يضم المنحرفين والمتكلين وماسحي الأحذية والمشعوذين وغيرهم؛ فقال عن ذلك: ".. **ما تجد في الأسواق؛ إلا حثالة من الدهماء يحترفون تبادل بيع الأسمال البالية، والخرق الممزقة، والأحذية المرقعة، ومواد قد أكل عليها الدهر وشرب، وشباب يلتقط من الأشغال ما عافه الأجناس الأخرى ليأكل الخبزة الصغيرة من فتات المعمل الكبير الذي هو اليوم ملك الغير [..] من رفع الأثقال، وكنس الأوساخ، ورش، ومسح. كذلك**

المشعوذون الذين يخبرون بالغيب في الطرقات والأسواق ليستثمروا المغفلين من الجهلة نساءً ورجالا، وهم على جهل من الحياة يستثمرون من هم أكثر جهالة وغباوة"[30].

ثم ذكر الكاتب إن من الأمور التي لفتت انتباهه خلال جولته هو انتشار أجهزة الراديو: " **وقد ألفت نظري انتشار آلات الراديو في كل مكان بين طبقات الأهالي من المحلات التجارية إلى حوانيت الصنائعية.. حتى حوانيت الحلاقين، وذوي المهن الدنيئة، وفي المنازل... شيء يفوق الوصف"**[31].

وأشار أخيرًا إلى أن المقاهي بدورها لا تخلو من الراديو، وانه مما يستدعي الإشادة تقهقر لعب الورق بين رواد المقاهي: ".. **أما المقاهي فقلما يخلو مقهى من المذياع... وإنما الذي يسلينا [..] هو أننا قد رأينا أوراق اللعب آخذة في القلة؛ منها بعد أن كان لعب الورق هو الشغل الشاغل لرواد المقاهي، تلف العقول، ومضيعة الوقت"**[32]، وهذا دليل آخر على أن زيارة الكاتب لمدينة الجزائر كانت متكررة؛ وإلا كيف تمكن من رصد هذا الأمر، وقارن الوضع عما كان عليه في السابق، خاصة انه لم يشر إلى مصدر معلوماته.

وعرف الكاتب بأهم الأحزاب السياسية المتواجدة حينها بالجزائر، وهي: حزب الشعب الجزائري، وحزب البيان، وجمعية العلماء، وذكر توجه كل منها، والتنافس؛ بل الاختلاف القائم بينها،

ولم يدرج الحزب الشيوعي الجزائري ضمن الأحزاب الجزائرية؛ ربما لوجود فرنسيين فيه. وعبر المؤلف عن أمنيته في اتحاد تلك الأحزاب لمواجهة الاستعمار، والنهوض بالمجتمع، ومما قال بهذا الخصوص: "**ونرجو ان يزول هذا الشقاق؛ لأننا نرى الأحزاب في العالم الراقي متباينة مختلفة المشارب والغايات والوسائل؛ حتى إذا جد الجد اتحدت وكونت كتلة واحدة لدرء المفاسد، وجلب المصالح العامة (عند الشدائد تذهب الأحقاد)**" [33]. ولم نجد في تفصيل الحالة السياسية ذكرًا للأشخاص، أو لنشاط تلك الأحزاب وقت زيارة الكاتب للعاصمة؛ مما ينم إما عن عدم اهتمامه بإعطاء الجزئيات، أو لعدم توفر معلومات مهمة لديه.

وأوجز المؤلف وصفه للحالة الاقتصادية بالجزائر في كونها محدودة، وتتمثل في بعض الشركات التجارية والمعامل والمصانع فقط، وذلك على الرغم من أهميتها بالنسبة للجزائريين، وأبدى الأسف على هذا الوضع؛ فقال: " **وقد تجد في الطبقات الأهلية بصيصاً من خير بإقبالهم على تأسيس شركات تجارية، وبعض معامل ومصانع لا تفي بالمقصود بالنسبة لكل ما عند الأجانب مما تعج به البلاد عجاً؛ فقد يدهشك ذلك، ولا يتمالك المدرك عن التحسس والأسف** "[34]، ولم يتعرض الكاتب لسبب هذه الوضعية المتدهورة؛ ألا وهو الوجود الاستعماري نفسه، وآلياته

الرأسمالية في التعامل الاقتصادي، والقائمة على أساس الاحتكار والرشوة والتلاعب.. وغيره.

الملاحق:

أشار المؤلف في آخر الكتيب إلى مشاريعه قيد التأليف، وقدم عنها بعض المعطيات، وطلب أحياناً أفادته بما لم يتوصل به؛ مبيناً هدفه من ذلك، والمتمثل في المساهمة في إثراء الحياة الأدبية والتاريخية بالجزائر، وحدد تلك المشاريع في ثلاثة، وهي عن:

- رصد جغرافي واقتصادي وسياسي لمنطقة الصحراء الجزائرية[35].
- "**اللمامشة والتاريخ** ": وهو أيضاً بمثابة رصد لمنطقة الشاوية (موطن أجداده)؛ سواءً من الناحية الجغرافية والسياسية، وخاصة من حيث تكوينها القبلي[36].
- "**شهيرات النساء الشرقيات** ": وهو عبارة عن تراجم لنساء العالم الشرقي المتقدمات منهن والمتأخرات.

ولم نعرف إن كانت هذه الأعمال قد استكملت، وتم نشرها؛ أم أنها بقيت حبيسة الأدراج، وان كانت لا تزال موجودة أو فقدت؟، وبدورنا نلتمس إفادتنا بما توفر عنها؛ خاصة أنها موضوعات على غاية من الأهمية، ويبدو أن الكاتب استغرق في جمعها وقتاً معتبرًا.

- **خاتمة:**

ان اهمية هذا المخطوط تكمن في انه استفاض في اعطاء التفاصيل الدقيقة لمختلف جوانب الحياة اليومية بمدينة الجزائر. وتمكن ايضا من رصد الابعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للجزائريين في تلك الفترة (نهاية الاربعينات). في وقت اتجهت الكتابة الجزائرية باللغة العربية الى انماط واهتمامات اخرى؛ لاسيما منها المقالات الصحفية والروايات القصصية والكتابة التاريخية. وان كان المخطوط لا يرقى فعلا لنمط المذكرات الشخصية؛ لانه في اعتقادي لا يرصد حياة كاتبه اثناء هذه الزيارة؛ بل يرصد تفاصيل مكان الزيارة.

ومن المهم ان نشير الى ان الكاتب تجنب الخوض في مواضيع ذات طابع سياسي مباشر من شأنه ان يدخله في دائرة العداء مع السلطة؛ من ذلك مثلا مجالات التفاعل والاحتكاك بين الجزائريين والاوربيين بالمدينة، وكيفية تعايشهم جنبا الى جنب، وكذا اثار التعسف الاداري، ومختلف الممارسات الاستعمارية الموجهة ضد الجزائريين سواء في التعاملات الادارية والقضائية والتجارية ... الخ.

الهوامش:

[1] حول تاريخ مدينة الجزائر انظر خاصة:

رابح بونار: **مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية** ، مجلة الاصالة، العدد 06، (جانفي 1972م).

ابو العيد دودو: **الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر ابان الاحتلال** ، مجلة الاصالة، العدد 06، (جانفي 1972م).

[2] انظر غلاف المخطوط.

[3] ص 03.

[4] انظر: ابو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج05، ص 299.

[5] وهو العنوان الأول الذي تمثل في: "**مشاهداتي طيلة شهر بجزائر بني مزغنة**".

[6] انظر الهامش رقم 02، ص 04.

[7] ص 05.

[8] المصدر نفسه.

[9] انظر: ص 10- 11.

[10] للتفصيل في تاريخ اهم المساجد بالمدينة انظر مثلا:

الطاهر بوشوشي: **تاريخ جامع كتشاوة** ، مجلة الاصالة، العدد 12، (جانفي – فيفري 1973م)، ص ص 289- 299.

مولاي بلحميسي: **الوزير الزياني في الجزائر العاصمة ووصفه للجامع الجديد** ، مجلة الاصالة، العدد 24، (مارس – افريل 1975م)، ص 136- 143.

عبد الرحمان الجيلالي: **الجامع الكبير بمدينة الجزائر معماريا وتاريخيا** ، مجلة الاصالة، العدد 06، (جانفي 1972م)، ص ص 37- 47.

[11] المخطوط ص 16.

[12] المخطوط ص 16.

[13] المخطوط الهامش رقم 01، ص 12.

[14] المصدر نفسه.

[15] المخطوط ص 06.

[16] المخطوط ص 10.

[17] المخطوط ص 16.

[18] المخطوط ص 06.

[19] بالنسبة لهذه الأخيرة فلعل الكاتب يقصد جريدة " **الجمهورية الجزائرية** **La république algérienne**".

[20] المخطوط ص 14.

[21] المخطوط انظر الهامش رقم 01، ص 15.

[22] المخطوط ص 15.

[23] المخطوط ص 07.

[24] المخطوط ص 07.

[25] المخطوط ص 07.

[26] ص 07.

[27] انظر الهامش رقم 01، ص 07.

[28] ص 10- 11.

[29] ص 11.

[30] ص 12.

[31] ص 12.

[32] ص 13- 14.

[33] ص 08.

[34] ص 08.

[35] لم يعط المؤلف عنواناً لهذا المشروع؛ إنما أشار إلى انه جمع فيه أكثر من أربعة ألاف صفحة، وعبر عن أمنيته في أن يزيد عنها. انظر: ص 18.

[36] ص 19.